

الثورات الشعبية والمقاومة الرمزية

في مواجهة الاستيطان

د. عمار يزلي

جامعة وهران

لم تكن نهاية ثورة الأمير عبد القادر في الواقع سوى بداية أخرى لمقاومات متجددة، لم تأخذ البعد الوطني الكبير الذي أخذته قبلها مقاومة دولة الأمير عبد القادر، لكنها لم تحد عن فكرة توحيد و تحالف القوى الجزائرية مشكلة من القبائل و الطرق الصوفية التي كانت تؤطرها.

كما أن فرنسا لم تحد عن فكرة الاستحواذ النهائي على الجزائر، وبقيت الدولة الاستعمارية فقط مجزأة ما بين خيارات استراتيجية. خيارات كثيرة، بسبب المقاومة المستمرة والقوية للجزائريين، مثلت خلال كل العهود الاحتلالية بخيارين اثنين: خيار عسكري وخيار مدني.

هذان الخياران، ولدا استراتيجيات متناحرة سياسيا-داخل الكتلة الكولونيالية-حول كيفية حكم الجزائر وطريقة "الإبقاء على الجزائر" أو "البقاء في الجزائر".

ففرنسا الاستعمارية التي جربت الإدارة العسكرية في بداية الاحتلال، وإلى غاية القضاء على ثورة الأمير عبد القادر -والتي سخرت ما بين 1847- 1846 نحو 106 ألف رجل بزيادة أكثر من 15 ألف إلى 20 ألف رجل بعد عودة الحرب سنة 1839¹ وبأكثر من 90 ألف رجل منذ 1832 -سوف تجد نفسها، ويفضل آخر الابتكارات التكنولوجية العسكرية الممثلة خاصة في بنادق "الشاصبو" (Chassepot)، متفوقة عسكريا، مما يفسر قصر عمر الانتفاضات والثورات. هذا التفوق المرحلي، سوف يفضي إلى تشجيع المعمرين على الاستيطان وفتح المجال أمام المغامرة الاقتصادية السياسية الكبرى بإلحاق الجزائر بفرنسا.

وإذا كانت الجزائر -وعمقتضى القانون البرلماني الفرنسي المؤرخ في 22 جويلية 1834، قد تحولت إلى "مقاطعة فرنسية" وبشكل نهائي، فإن ذلك قد أوجب فصل السلطات المدنية و العسكرية بعضها عن بعض و إدخال المستعمرة الجديدة في دواليب "الإدارة المدنية" السائد في فرنسا، و إنهاء " مرحلة الحكم العسكري " الأولى (1830-1834)، لتبتدئ مرحلة "الحكم المدني" (1834-1840). غير أن هذا الفصل لم يكن سوى اسميا، فالمقاومة لم تنته مما سيطفى على إدارة شؤون الجزائر المحتلة الطابع العسكري خلال كل هذه المراحل القانونية التي خطت على الورق -و العودة إلى الحكم العسكري المباشر ما بين (1840-1844)، بعد عودة الحرب بين الأمير عبد القادر و الجيوش

¹ - Djilali/Sari :L'insurrection de 1881

1882SNED.Alger.1981.P :31

الفرنسية إثر حرق الجنرال بيجو لاتفاقية "تافنة" في 1839 - يؤكد أن فرنسا لم تتمكن من إيجاد أداة إدارية فعالة تؤطر بها احتلالها للجزائر . بقيت فرنسا بعد هذا التاريخ - وخاصة بعد القضاء على ثورة الأمير عبد القادر - متأرجحة ما بين موازين القوى السياسية الداخلية و الخارجية : خارجيا أمام قلقها الدائم من الدول الأوروبية المجاورة خاصة ألمانيا . و داخليا ، بين دعاة الإلحاق و فرض النظام الإداري المدني بإعطاء صلاحيات توسعية استيطانية كبرى للمعمرين في إدارة شؤون "بلادهم" و بين دعاة "تعريب الجزائر الفرنسية" الذين فضلوا منطق الإدماج على منطق الإلحاق ، خاصة مع بداية الجمهورية الثانية (1848-1852). هذا التوجه نحو الإلحاق النهائي المدعم من قبل البرجوازية الميركانتيلية و الكتل الاستثمارية الكولونيالية ، سوف يقوى ابتداء من 4 مارس 1884 بمرسوم موقع من طرف "الحكومة المؤقتة" - إثر الإطاحة بالملكية مرة أخرى -² مما شكل دعما آخر للمعمرين المهاجرين إلى الجزائر³ ، الذين انتقلوا و بأعداد مضطردة إلى الجزائر المستعمرة ابتداء من 1844 ، تاريخ دخول مقاومة الأمير عبد القادر مرحلة الضعف الأخير.

² د. إحسان حقي : الجزائر العربية . منشورات المكتب التجارية - بيروت - 1961 . ط 1 . ص :

³ كان عدد المعمرين في الجزائر سنة 1841 نحو 36374 معمر . و في سنة 1845 ، وصل هذا العدد إلى 95321 معمر .

يسنظر : د. عبد اللطيف بن آشنهوا : تكون التخلف في الجزائر (1830-1962) ش.و.ن.ت. الجزائر. 1979. ص: 52.

مشروع الدمج وتدجين الأنديجين

غير أن تعويض الجمهورية الثانية بنظام "الإمبراطورية" (الثانية)، سنة 1852، أدى إلى تغيير جديد في إستراتيجية التعامل مع "الجزائر المحتلة" لإصدار مرسوم 14 جانفي 1852، الذي ينقض مرسوم 1848 يقضي بمنح الفرنسيين المقيمين في الجزائر إرسال نواب عنهم إلى البرلمان الفرنسي، تمهيدا لتطبيق مشروع المملكة العربية الذي رسمه الإمبراطور المنتخب نابليون الثالث في إطار استراتيجيته "دمج الأعراق"، التي وضع أطرها المارشال "راندون" (Randon).

الفكرة كانت مبنية على أساس "...فقط، مشروع لدمج الأعراق قد يكون كفيلا بإذابة الأحقاد و الصراع بين شعبين كتب عليهم العيش جنبا إلى جنب على أرض الجزائر"⁴. هذا التوجه الجديد قد ترتب عنه الشروع في نسج عدة "مؤسسات" كفيلة بإدماج الأعراق و "تصالب" الديانات، مثلت بشكل خاص في مؤسسات الزواج المختلط: فرنسيون بجزائريات، و بواسطة حملة "اعتناق الإسلام"⁵

⁴ Annie Rey Goldzeiguer :Le ROYAUME ARABE. La politique Algérienne de Napoléon 3(1861-1870) SNED. Alger. 1977. P :73.

⁵ من بين هؤلاء الذين اعتنقوا الإسلام -و لغرض الزواج بمسلمات جزائريات من "الأهالي": Urbain, Burbugger, والكولونيل De Neveux. المارشال

غير أن هذه المؤسسات الاندماجية ، سرعان ما أوضحت مدى قصر بعد النظر لدى منظريها و مدى عمق الهوة والصراع والتفاوت المرجعي الثقافي بين "الشعبين المحبرين على التعايش" ، و اتضح معه أن الإدماج العرقي - كما نظر له - كان مخيباً للأمل و مستحيل التحقيق⁶ لقد اتضح واقع الأمر بعد أن لوحظ بأن هؤلاء "المندمجين" سرعان ما لفظتهم المؤسسات العائلية و القبلية، كشكل من أشكال الرفض المطلق لهذه الصيغة التوليدية و هذه المعادلة التصالبية اللامنطقية. هذه الأطروحة المستمدة من نظرية سان سيمون " حول "اتحاد المشرق و المغرب"، سوف يتضح أمر طوباويتها -وطوباوية اشتراكية سان سيمون نفسه- و يعيد تلامذتها النظر فيها، ويستولي الكولون على هذه المعادلة التوالدية لتحويلها إلى واقع أمر و فلسفة الاستعمار ذاتها المبنية أساساً على المقولة الفرنسية "لا يمكن قلي البيض بدون تكسير البيضة ". و يخرج "كليمون ديفيرنوا" (C.Duvernois) سنة 1860 من منطلق نظرية تصالب الأعراق : "كل المجهودات يجب أن تبذل من أجل تعويض العربي بالأوروبي كلما توفرت المساومات بينهما، إضافة إلى تقريب العربي من الأوروبي ليكون هناك تواصل بينهما حتى يأخذ الأول الدروس من الثاني".⁷

هذا الطرح الجديد للمعادلة السانسيمونية، سيتعرض هو بدوره للرد السريع على لسان "إيميل دي جيراردان" (E. De Girardin)، عندما يعلن أنه من نتائج الاستعمار هي الإبادة، التشريد أو الاندماج: نظام يجعل

⁶ نفس المرجع ص: 78

⁷ نفس المرجع ص: 74

الأهالي المتزمتين تابعين للكلون في كل الأشكال و هذا بفعل حق الاحتلال يضرب عرض الحائط حقوق الانتماء"⁸

الماريشال "راندون" -الحاكم العام للجزائر- سوف يعترف فيما بعد في مذكراته بعمق "المشكل الجزائري" و تهور الحكم المدني و أنصاره في تحويل الجزائر إلى قطعة من فرنسا بعدما يقول: " فلقد تواجد و بشكل دائم عنصران حاضرا دوما: الأهالي، الممثلون بذكريات استقلالهم ، و كلهم ثقة بعددهم ومقوما تم الدينية التي تحول إلى عدو كل من لم يقاسمهم إيمانهم، و يطردون بقوة خارقة المسيحي الباحث عن الاستيلاء على الأراضي التي كانت، و مند قرون بين أيديهم. ثم المعمرون المحتلون المستعدون للاعتقاد بأن الاحتلال قد منحهم كل الحقوق، و ما بين هذين العنصرين المتصارعين، يلعب الجيش دور الوسيط و إليه يعود دور احتواء "التدمير المتوحش" للبعض، و المطامح اللاحدودة و الخطيرة للبعض الآخر"⁹

هكذا يلخص "راندون" جوهر الصراع على الجزائريين الكتل الأوروبية - من مدنيين و جمهوريين، جمهوريين و امبراطوريين- المقتنعة كلها بأن قضية الجزائر، أصبحت من اختصاص فرنسا، بل و أصبحت الجزائر "قضية فرنسية داخلية" تتنافس عليها القوى السياسية و الاقتصادية.

أما في الجزائر، فقد كان الصراع يأخذ في الغالب بعدا آخر: المقاومة المسلحة، و الرفض الشعبي.

8 نفس المرجع ص : 78

9 نفس المرجع-ص:78

ثورة أولاد سيد الشيخ و كسر محاولة الاحتواء.

لم تكن معاهدة "لالة مغنية" - 1845 - بين السلطات الفرنسية والسلطة العلوية المغربية، بداية نهاية المقاومة الوطنية عن طريق مضايقة رأس الأمير عبد القادر بالتعهد بعدم الاعتداء على الملكة، وجزء من أراضي الأعراش البوشيخية¹⁰ ، بقدر ما كانت بداية جديدة لمقاومة جديدة.

فأولاد سيد الشيخ - هذه المجموعة الاثنية المنتمة جينولوجيا للفرع البوبكري (أي بكر الصديق) و المنتمة أنثروبولوجيا لشريحة المرابطية

(Maraboutique)، الحلفاء المميزين و الممتازين للأمير عبد القادر المخطوظين حظوة سوسيولوجية و دينية حضارية من طرف هذا الأخير بدليل عدم تقديمهم للأمير إلا "خدمة" رمزية بعد إعلان ولائهم له ، بسبب نسبهم - هذه المجموعة القبلية الكبيرة المقسمة إداريا منذ 1845 إلى "شراقة" و "غرابة" لم تتحكم إثر الإهمار العسكري الفرنسي من البقاء على قوتها بدخول قوتين حكوميتين: الفرنسية من جهة و المغربية من جهة أخرى، معترك أحداث

¹⁰ يذكر عبد الوهاب بن منصور - مؤرخ الدولة المغربية - أن "مدينة وجدة وأراضي الريف الوسطى و الشرقية و كذلك أطراف فيلاله، كانت تخضع - إذا خضعت لسلطة مركزية ما - لنفوذ تلمسان أو غيرها من قواعد المغرب الأوسط (الجزائر). و استمر الحال كذلك إلى ما بعد انقراض الدولتين الزيانتين الشقيقتين. و لما استولى الأتراك العثمانيون على الجزائر ، احتفظوا بتلك الجهات و وعدوها من أعمامهم و بسطوا عليها سلطانهم ثم تنازعوها و المغاربة، فحلصت إلى الإمبراطورية المغربية الشريفة".

ينظر : عبد الوهاب بن منصور : أنواء نيسان في أبناء تلمسان. مخطوط. 1942. ص: 22

الضغط و المساومات.¹¹ فدخل قائد "الشراقة" -السي حمزة- تحت لواء الإدارة الفرنسية بعد أن قبل تعيينه "خليفة الجنوب" والدخول في صراع قاتل ضد محمد بن عبد الله الشريف"، بمنطقة ورقلة - الثائر على رأس قبائل الشعابنة- و تعيين "سي لعلا"- أخ سي حمزة- آغا على ورقلة.¹²

غير أن هذه "الانهزامية" لدى قائد "الشراقة" و خياره المنحاز إلى الصف الفرنسي المتبع وقتها في منطقة الجنوب لسياسة "المكاتب العربية"، المقامة على المناطق العسكرية، و التي تتمتع بالاستقلالية النسبية الروحية و الثقافية للسكان المسلمين خلافا للحال الذي كانت عليه المناطق ذات نظام التسيير المدني، سوف لن يدوم طويلا بدخول عوامل جديدة، تبدوا ذاتية، لكنها لا تنفصل عن سيرورة الرفض ومقاومة "الآخر" الدخيل التي كانت و بشكل دائم فلسفة مجتمع أولاد سيدي الشيخ.

¹¹ قامت القوات الفرنسية بعملية كسر و تفتيت سوسولوجي كبير بواسطة سياسة السلب والنهب، خاصة ضد قبائل الغرب الجزائري المتحالفة مع الأمير عبد القادر، و هي السياسة التي اتبعها مع كل القبائل المساندة للحركات الثورية والانتفاضات. فقد قامت السلطات العسكرية، و في ظرف ثلاثة أيام فقط من الاستيلاء على 3 آلاف ثور، 7 آلاف رأس من المواشي، إضافة إلى 700 ثور، 2000 رأس من ماشية و 300 دابة و 30 جملا بالأراضي المغربية. كما قامت على مستوى قبائل "حميان" - خدام الأمير عبد القادر و أولاد سيد الشيخ - بسلب 4 آلاف رأس من الماشية و هذا سنة 1847، ثم 33 ألف رأس آخر، و 500 جمل، و العديد من الخيول والخيام و الأسرى.

ينظر: Djilali Sari :L'insurrection de 1881- 1882 .Op Cit .P : 30

¹² Op Cit .P :33

فانتفاضة "الحضنة" (1860)، كان من شأنها أن أعطت دفعا معنويا جديدا لأولاد سيدي الشيخ الشراقة، تداخلت مع بعض الأحداث الذاتية، لكنها بالغة الأثر، ممثلة في لجوء "سي فضيل" -من أولاد ماضي- إلى زاوية الأبيض سيدي الشيخ بعد قمع انتفاضة الحضنة، قد أعطى لـ "سي سليمان" - الإبن الثاني لسي حمزة (المتوفى بطريقة مشبوهة بعد إشاعة موته مسموما)، الثقة بالنفس، خاصة وأن "سي فضيل" الذي اتخذ سكرتيرا له، كان شابا مثقفا وشجاعا. لكن الأنفة و الشرف، كان فوق ذلك بكثير: شرف المساس بالوقار و السمعة والمكانة لقائد "مرابط"، على يد ضابط فرنسي !! . حادثة ديسمبر 1863 بورقلة، كانت بداية الدوران حول الذات و بداية فهم صيغة معادلة "الحكم العسكري و مكاتبه العربية" التي يراد منها إذلال المسلم و تحويل "المرباط" و "الشريف" و "خدامهما" إلى "خدام" ضباط المكتب العربي العسكري الفرنسي !! و ما حادثة طرد الكولونيل "Beauprétre" لسكرتير "سي سليمان"¹³ إلا بمثابة القطرة التي أفاضت الكأس، و فجرت غضبا ظل كامنا لمدة، بداية من أول مشروع التغلغل العمودي للآلة الاستعمارية باتجاه الصحراء والتفكير في شق خط للسكة الحديدية الصحراوي (Transaharien) لمنافسة تجارة القوافل التي سوف تصطدم فيما بعد بمقاومة الطوارق.

¹³ لمزيد من التفاصيل، ينظر : Annie Rey Goldzeiguer : le ROYAUME ARABE . Op Cit . P : 280

كيف يمكن تفسير انفجار ثورة أولاد سيد الشيخ الشراقة، في الوقت الذي بات فيه الاستعمار يعتقد تمام الاعتقاد بأنه قد تمكن من احتواء هذه الفرقة مباشرة بعد معاهدة 1845 ، و كيف يمكن تشريح انتفاضة اتسعت دائرة تأثيرها إلى أطراف المضاب العليا باتجاه الصحراء ثم باتجاه الحضنة و الناحية القسنطينية و القبائل الصغرى، إن لم تكن "تلك الرغبة في الانعتاق من العبودية و البؤس" - على حد تعبير رسالة "سي محمد ولد سي حمزة" الموجهة للقبائل في جويلية 1864، على إثر الهجوم على فرنده. و كيف يمكن تفسير وحدة القبائل، بعد معركة "لعوينات بوبكر" (قرب البيض)، و تلك اللحمة الوطنية الدينية التي فرضت الرد بالإيجاب على رسالة الجهاد التي أرسلها "سي محمد بن حمزة" إلى خاله الحاج قدور بن الصحراوي بأولاد خالد و باقي القبائل "الأحرار"، "أولاد بو زيان"، "الشواحي"، "الكعابرة"، "أولاد منصور"، "أولاد بوعليق" - خدام أولاد سيد الشيخ - إضافة إلى قبائل "فليتة" بالغرب، و المتفرقة وقتها، و التي جمعتها من جديد عصبية "الدين" و "العرض" و "الأرض". رسالة كانت تلخص سيكولوجيا الجماعة في رد الفعل: .. و اعلّموا اليوم بأن واجبا دينيا ينتظركم. يجب علينا أن نحیی السنة النبوية من جديد والتي انطفأت باتصالها مع الكفار و التخلص من سيطرتهم على المسلمين بعد أن أصبحوا يركعون أما لأعداء الله و رسوله .. لا.. أنتم تملكون القدرة على الجهاد. أنتم تملكون سلاحا جيدا، و حماسكم لا يجهله أحد. لقد حان الوقت الذي كنت أنتظره لإعلان الجهاد. سيمكنكم الله من ثار أخينا الذي حارب في طريق

الإيمان -السي سليمان بن بو بكر- الذي كبد عقابا للكفار أكثر مما أثبتناه
أمس...¹⁴

في الواقع، كانت ثورة أولاد سيد الشيخ، و التي هي سلسلة من الثورات
و ليست ثورة واحدة -نتيجة حتمية الوجود الفرنسي وتغلغل، داخل النسيج
الاجتماعي الاقتصادي و اغتصابه لحرمة "الخيمة الكبيرة" و القبيلة و الأرض التي
تمثل كل الشرف العربي، لدى القبائل الأشراف منهم و "المرابطيون" و الخدام .

وإذا كانت المؤسسة الاستعمارية بفكيها العسكري و المدني قد بنت
أسباب ذلك حسب طروحاتها المختلفة باختلاف المواقع السلطوية: العسكريون
بموقفهم المنتقد للحكم المدني، يرجعون سبب الانتفاضة إلى تكاثر المحاولات
الإدارية التي دوخت الأهالي الذين لم يعودوا يفهمون ماذا يحصل في بلاد مقسمة
إلى قسمين إداريين مدني و عسكري. و المدنيون يرجعون أسباب ذلك إلى خلل
في دواليب إدارة الحكومة لا أكثر، فإن الآلة الاستعمارية لم تعرف يوما بالسبب
الجوهري لهذه "الانتفاضة"، الممثل في طبيعة الاحتلال والاستيطان أساسا. و ما
الممارسات الإدارية العسكرية، إلا الشكل البارز لجوهر مخفي.¹⁵

¹⁴ Op Cit ; P: 286

¹⁵ بعد اعتماد "المكاتب العربية" على ضباط فرنسيين عارفين بالوسط الجزائري (العربي و البربري)
لغة و ثقافة شفوية، و هذا في بداية الاحتلال، تحولت هذه المكاتب إلى إدارة عسكرية محضه بعد
اختيار الضباط السابقين العمل في صفوف الجيوش الفرنسية في كل من الصين و إيطاليا و
المكسيك، بحثا عن كسب أكبر . و لم يبق "بالمكاتب العربية" سوى ضباط لا يهتمون إلا بجمع
الضرائب بدون أية اعتبارات - لجهلهم باللغة و بعبادات و تقاليد التي تسير القبائل الخاضعة لحكم

لقد خلف دوس الملكية العقارية بمختلف أشكالها، لا سيما الملكية الجماعية بشقيها: "الوقف" أو "الحبوس" و"ملكية العرش" خلف أثرا بالغاً في عمق السيكولوجية الجماعية التي ترى في حق الملكية "شكلاً من أشكال الشرف"، و"حقاً تاريخياً دينياً" عكس التوجه الأيديولوجي المدسوس للدكتور "وورم"

(Worms) الذي نظّر لحق الملكية في شكل "فتوى سياسية" بقوله "في البلدان المسلمة، الأرض ملك لله وحده. و عليه، فبإمكان الدولة (الفرنسية) أن تحصل على ما أرادت من أراضي الملاك الذين وقع عليهم الاحتلال".¹⁶

هذه النظرة لحق الملكية، سوف تفتح المجال واسعا أمام إفقار تدريجي لكل القبائل تمهيدا لرأسمة القطاع الزراعي و خلخلة البنى الاجتماعية وباقي أشكال الملكية العقارية الأخرى، لصالح الملكية الرأسمالية الفردية - التملك العقاري للأفراد و الشركات الكبرى - بغية تراكم رأسمالي سريع. و هي العملية التي بدأت في الانتشار بشكل تسارعي ابتداء من 1850 و إلى غاية 1880 -تاريخ الطفرة الجديدة في سياسة الاستيطان.¹⁷

"المكاتب العربية" إضافة إلى خطأ الإدارة العسكرية في الاعتقاد -لسوء فهمهم للواقع الجزائري- بأن البلاد قد تم فرض "الأمن" بها (Pacifié) بشكل تام، بدليل أن بعض المكاتب العربية كانت إلى غاية عشية الانتفاضة سنة 1864، ترخص بشراء البارود تحت أعذار مختلفة.

ينظر: نفس المرجع السابق -ص: 276.

¹⁶ نفس المرجع السابق -ص: 165.

¹⁷ لمزيد من التفاصيل، ينظر: د. عبد الطيف بن أشنهو: تكون التخلف في الجزائر -مرجع سبق

ذكره- ص.ص: 99-120

كما سيفتح هذا التوجه المجال واسعا أمام هجرة جماعية لعدة "خيم" باتجاه المغرب وتونس، حيث نلاحظ أنه إثر فرض سياسة "القروض على البذور" المخصصة بشكل مباشر من المحصول، سوف تؤدي هذه السياسة إلى إفراغ مطامير الحبوب ووضع "الأهالي" تحت رحمة السماسرة الأوروبيين والإسرائيليين بشكل خاص.¹⁸

و أمام هذا الوضع، سجلت لنا وثائق الاستعمار الكولونيالي ذاته هجرة 8 من شيوخ "الخيم" (الأسر) من قبيلة "أولاد نهار" (سبدو-ولاية تلمسان-) نحو المغرب قريبا من دفع 30 ألف فرنك، كانت قد قدمتها مؤسسات فرنسية لتسبيق عن دفعات منتوج الصوف¹ كما يشير من جهة أخرى تقرير مرفوع إلى الإمبراطور-نابوليون الثالث-(1862)، إلى أن "دائرة نيمور (الغزوات)، وتلمسان، تعرفان بؤسا كبيرا حيث لم يعد للسكان ما يقتاتون به سوى بعض الجذور، وأن الناس يموتون جوعا"¹

إخضاع المناطق الجزائرية لنظام الإدارة المدنية، زاد في تضيق الخناق على السكان و القبائل. فإدماج قبيلة ضمن إقليم مدني، كان معناه نزع الملكية من هذه القبيلة في وقت قصير، إضافة إلى فرض رسوم كبيرة من رسوم التسجيل وتكاليف الانتقال و تكاليف البيروقراطية الادخارية.

Annie Rey Goldzeiguer: LA ROYAUME ARABE. Op :170¹⁸

Cit .P

و في هذا السياق، توصل الإمبراطور بثلاث رسائل مباشرة -دون المرور عن طريق الحاكم العام -من الأهالي، يتوسلون له فيها ألا يخضعهم لنظام الإدارة المدنية.¹⁹

في خضم هذا التحول التدريجي نحو رأسملة الملكية العقارية ونزع الملكية من القبائل و الأفراد بواسطة مختلف القوانين العقارية -و الذي يعني إلغاء حق الجنسية و كذلك حق الشخصية -²⁰، كانت الانتفاضات تجدد متكا صلبا لتوسيع دائرة عملها، بفعل توسع دائرة التفجير و التفتت الاجتماعي و الثقافي.

أشكال المقاومات العفوية:(1860-1869)

شكلت ثورة أولاد سيد الشيخ، سلسلة من الانتفاضات الشعبية موزعة على مختلف النواحي كنتيجة حتمية لسياسة الاستعمار ككل وسياسة الاستيطان الكولونيالي بشكل خاص، ممثلة في "الإدارة المدنية" التي جعلت من قضية تفتت الملكية و رأسملة القطاع الزراعي أولى أولوياتها، روجت لها صحفها.

في هذا السياق، تنشر "الأخبار" هذا التعليق: ". يجب على الفردانية أن تنغرز في المجتمع العربي لكي يتم تذويبه ثم تشكيله من جديد على مبادئ حضارتنا"²¹.

¹⁹ Op Cit.P :171

²⁰ Op Cit.P:172

²¹ Op Cit.P:171

هذا التصريح العلاني-قولا و عملا- سوف يستنفر القبائل وقيادتها وسوف تعمل الإدارة الاستعمارية بالتالي على تنفيذ سياسة القضاء على "الخيم الكبيرة" (العائلات الكبرى) التي قد تشكل -أو شكلت فيما سبق- بؤر توتر لدى الإدارة الكولونيلية، بغرض تكسير البناء الاجتماعي القبلي نهائيا، وتحويل المجتمع الجزائري إلى تشكيل فردي، قابل للذوبان.

لقد تمكن الاستعمار الفرنسي في المرحلة الأولى من كسب ثقة بعض الأعيان و الشيوخ، بواسطة سياسة "الاندماج العرقي" تمكن من "إدماج" كثير من الشباب في الجيش -لا سيما في فرق "السبايس" (الصبايحية)، لكن رد الفعل العام لم يكن كما أرادت الإدارة الفرنسية.. فالسكان الأهالي الذين أصبحوا يعيشون بغير نظام، مسلوبين من كل شيء، لم يعد في مقدورهم المقاومة. فاجتمع بعد التكسير لم يعد يقاوم، بل تحول إلى رد فعل فردي في شكل رفض وتمرد متمثل في جرائم و اعتداءات على الأعوان الإداريين والعسكريين²².

و ضمن هذا الشكل من الرفض الشعبي، سجلت خلال هذه الفترة العديدة من الحوادث :

- في جويلية 1862: دائرة البلدية تعرف أربع حوادث اغتيال أو محاولات اغتيال في ظرف ثمانية أيام فقط. (23 إلى 31 جويلية).

-أوت 1862 : سجلت 9 حرائق بغابات زكار-في المنطقة المدنية بمليانة-.

-سبتمبر 1862 : سجلت عدة عمليات اغتيال ضد أعوان أوروبيين
و يهود بالبليدة.

كما عرفت المنطقة خلال 48 ساعة فقط، 6 محاولات اغتيال، سرقات
و حرائق. كما سجلت في نفس الفترة عدة حرائق بغابات القليعة المنازل عنها
للمعمرين من مدينة "ليون" الفرنسية.²³

و حتى الشباب الذين لم يجدوا ، إثر سياسة التجويع و التفتيت
الجماعي، سوى صفوف الخيالة الفرنسية -العربية(سبايس) وجدوا أنفسهم في
نهاية المطاف معزولين اجتماعيا. و في هذا السياق، يشير تقرير موجه للإمبراطور
و مجلس الشيوخ الفرنسي إلى أن "العسكري الذي يدخل الحياة المدنية بعد فترة
التجنيد، يجد نفسه بلا ترحيب من طرف قبيلته و عائلته، كما يجد نفسه مجبرا -
حياء- على إخفاء ميداليته العسكرية."²⁴

كما تشير شهادة أخرى على حجم الضغط الاجتماعي القبلي
والأسري على الأبناء الذين اختاروا الالتحاق بصفوف "السبايس"، حيث تذكر
الشهادة أن فرق السبايس ببلاد القبائل و ذراع الميزان وتيزي وزو، و التي
حولت إلى "أومال" (الاحضرية)، احتجت بقوة لكونهم انقلوا رغما عنهم
ويطالبون في رسالة تلغرافية من الجنرال "يوسف لاباز"(Y.Lapass)
تسريحهم نهائيا من الجيش . اضطرت القوات العسكرية إثر هذه المراسلات من

Op Cit.P :177²³

Op Cit.P :177²⁴

مراقبة البريد ثم إلغائه بهذه المنطقة تفاديا لتفشي بذور التذمر داخل هذه الفرق العسكرية.¹

و استكمالا لهذه الأشكال من الرفض و التمرد ، سجلت البلاد عدة حوادث متفرقة خلال نفس الفترة :

- فبراير 1861 : سجل نهب سوق "النقاوس" تبعثها محاولة تمرد.

- أبريل 1861: سجل هجوم مسلح على الجلفة (ليلة 14 إلى 15 ابريل) ، و بصيحات "الله، الشيخ سيدي موسى " ، هجم نحو خمسين شخصا من بينهم نساء و رجال ، يقودهم "سي الطيب شندوغة"-مقدم زاوية الشيخ سي المختار- هاجموا ثكنة البرج. النتيجة : ثلاثة قتلى فرنسيين و 15 جريحا منهم بعض السكان الأهالي . ينفذ إثرها حكم الإعدام في حق سبعة من "الأهالي"²⁵

- يوم 27-3-1863 : يغتال قائد "مغنية" على يد أفراد من قبيلته
- يوم 4-9-1863: يغتال شيخ "بني زناسن" (بالحدود الجزائرية المغربية) بعد الظلم الذي مارسه في حق قبائل "المهاية" الرعوية منذ 1859.

- في أوت 1863 : سجلت عدة حرائق بالمزارع في كل من "العلمة" و " وادي العليق" منها مزرعة المعمر "Bouchbacker" ، التي اتلفت كلية ، إضافة إلى 2000 هكتار من غابات "الشفة" و 400 هكتار من غابات

Op Cit P:181²⁵

"العلمة" و 1200 هكتار في الجنوب الشرقي لـ "الفندق" المكونة من أشجار الزيتون و التبغ و الكروم ، أتت عليها النيران .²⁶

على مستوى وحدات "الزمالة" الممثلة في فرق "السبايس" -المأخوذة تنظيما من عهد نظام الايالة التركي، و كذا من نظام فرق الخيالة النظامية في جيش الأمير عبد القادر- لم يكن الأمر على ما يرام رغم أن الإدارة الكولونيالية كانت قد أعطت "امتيازات كبيرة!!" للمتقنين بصفوفها²⁷. رغم هذا، فقد سجل تقرير في سنة 1863، عدة حالات فرار من صفوف هذه الفرق :

- من جانفي إلى سبتمبر 1862: سجل 33 حادث فرار .
- من أكتوبر إلى ديسمبر 1862: سجل 38 حادث فرار .
- من جانفي إلى مارس 1862 : سجل نفس الرقم السابق .
- من 04 مارس 1862 إلى 04 أبريل 1863: سجل 71 حادث فرار.

Op Cit P:264²⁶

²⁷ الجنود الجزائريون الملتحقون بصفوف فرق "السبايس" كانوا معفيين من تقديم مختلف الضرائب، كـ "الزكاة" و "العشر" (التي لا تقدم أساسا إلا لبيت مال المسلمين !!) ، و باقي الضرائب الأخرى ، إضافة إلى "امتياز " :الأكل حتى الشبعة، و الحصول على لباس -البذلة العسكرية)!! . كما كانوا معفيين من الخدمات المجانية الإجبارية : و يحصلون بسهولة من أراضي "العزل" (ملكية"البايلك" أو "الدومين") على قطع ارض للكرء مقابل "حكر" سنوي ضريبة عينية على المحصول الزراعي السنوي)، تتراوح مساحتها ما بين 15 الى 18 هكتار للفرد الواحد، مما يجعل أمر الحصول على منصب في هذه الفرق العسكرية إما حياتيا و مصيريا في معظم الأحيان . ينظر نفس المرجع السابق -ص: 261.

● من 01 أبريل إلى 15 جويلية 1863: سجل 51 حادث فرار.

يلاحظ من خلال الأرقام السابقة مدى تزايد عدد حالات الفرار مع سنة 1863 مقارنة بسنة 1862، و يرجع ذلك إلى أن سنة 1862 كانت سنة جفاف، مما يفسر ظاهرة الالتحاق الجماعي بصفوف فرق الجيش .

حوادث الفرار هذه كانت في أغلب الأحيان باتجاه تونس - باعتبارها "بلاد الإسلام" - و سببها إقدام السلطات العسكرية على الانتقال الإجباري لهذه الفرق باتجاه المكسيك و الصين أو باريس .²⁸

هذه الأشكال العفوية للمقاومة الشعبية ، لم تكن في الواقع سوى حلقات من "رجع الصدى" لثورة أولاد سيدي الشيخ ، و إحدى فصولها. هذه الثورة التي ستنتهي بفرض عقوبات مالية و إنسانية ضد كافة الشعب الجزائري .²⁹

²⁸ حالة الملازم "بوعافية" -من فرقة السياس الثالثة -، عوقب بشهر سجنًا لمحاولة إقناع بعض أفراد جنوده الجزائريين برفض الذهاب إلى فرنسا، لأنه حسب قوله لهم، لن يكونوا صالحين هناك لشيء آخر غير "القوادة" نفس المرجع ص 261 .

²⁹ فرضت السلطات الاستعمارية عقوبات و غرامات مالية : 22 ألف رأس من المواشي، لناحية العاصمة ، 4 آلاف رأس لناحية قسنطينة و 12 ألف رأس لمنطقة وهران و 100 ألف فرنك غرامة لسكان "متليسي" أعقبها تحطيم ألف و 1170 نخلة من جراء عدم قدرتهم على دفع الغرامة. أما قبائل "الحميان" و "الأحرار" ، فقد أبيدت مواشيتهم على آخرها : 100 ألف رأس من المواشي، كما سلبت منهم مدخراتهم الضخمة من الشعير و أعداد كبيرة من الجمال و 4 آلاف رأس من الخيول و 900 ألف رأس من المواشي.

ينظر: Djilali Sari : l'insurrection de 1881-1882. pp : 38-40

تجسدها شهادة "الكونت لوهون" (le Hon) بمعسكر حين يصرح في إحدى تقاريره بأن "...النائب المدني لواد الحمام يبلغ أن البؤس قد ضرب غرب هذه الناحية منذ الانتفاضة الأخيرة (1864)، و عليه ، فإن المكاتب العربية قد أقدمت على تجنيد كل الدواب لتمويل "جيريفيل" (البیض). لقد أخذنا كل ما وجدناه. ولفرط الحمولة التي حملت لهذه الدواب، فإن العديد منها قد مات في الطريق. و حتى أصحابها الذين لم يتمكنوا من تحمل عناء السفر، قد ماتوا في الصحراء. نفس المصير لقيه فيما بعد، أبناءهم و زوجاتهم و الذين تركوا بدون وسائل عيش. و القليل من "العرب و الحيوانات!" الذين تمكنوا من العودة إلى قبيلتهم، قد وجدوا الجراد قد أتى على المحاصيل الزراعية، سقطوا على إثرها في بؤس لا مثيل له".

و بناء على المعطيات ، كان على فرنسا الاستعمارية ، أن تستكين إلى الراحة، و يسارع الكولون إلى اقتسام غنائم الحرب والتنافس على الأراضي الشاسعة بين الدولة و الخواص و كبريات الشركات الرأسمالية، و تحويل أجزاء كبيرة من البلاد إلى أملاك كولونيالية، سوف تستفيد من دعم نفوذ الإدارة المدنية شيئا فشيئا ليتسنى لها التوسع المطلق بداية من 1880- تاريخ بداية التوغل الرأسمالي المالي المصري، لا سيما صناديق المساهمة الزراعية والبنوك الفلاحية ، التي سوف تشجع على زراعة الكروم بمساحات ضخمة، إثر كارثة الكروم في فرنسا سنة 1879.

لم تكن مدة الاستقرار طويلة الأمد، بعد القضاء على ثورة أولاد سيد الشيخ. و لم تمض سنوات قليلة - التي لم تكن كلها بدون قلاقل اجتماعية-

حتى كانت ثورة المقراني و الشيخ الحداد تعيد ذكرى ثورات "بوغلة و لالة فاطمة نسومر"³⁰، قبل 15 سنة، لتنفجر عام 1871 ، و التي قاومتها فرنسا بكل الأساليب إلى غاية القضاء عليها في السنة الموالية. و كعادتها ، أقدمت الإدارة الاحتلالية العسكرية على "تأديب" الثوار ، نفيا و قتلا و بفرض غرامات باهظة و مصادرة مئات الآلاف من الأراضي - كما أشرنا إلى ذلك سابقا -.

هذه الممارسات، كان لها رد فعلي محدد في الزمان والمكان.. تغيرت ردود الفعل هذه حسب الظروف.. في الشكل وفي المضمون...

الثابت في كل هذا، أن المقاومة لم تهدأ ولم تتوقف يوما.. إلا لتتغير أو تتنوع أو تقل أو تزداد.. والمتحول، أن الأشكال تعددت حسب الظروف وحسب الأحوال.. مما يجعلنا نقول أن "المقاومة كانت فعلا متغيرا على الدوام.. وحالة اجتماعية وسيكولوجية قارة لا تحيد..

³⁰ "بوغلة" اسمه الحقيقي "سي محمد بن عبد الله" - الذي أضيف له لقب "الشريف" قاد مقاومة بطولية تزامنت مع مقاومة لالة فاطمة نسومر ، و التي خطبها لنفسه من أخيها الأكبر في أوج المقاومة، و قبلت لكن الزواج لم يتم لأنها كانت لا تزال على ذمة زوجها الأول الذي زوجت له غضبا عنها فأرغمته على "التنازل عنها" لكنه لم يطلقها، حتى توفيت عن عمر يناهز 33 سنة- و هذا ما بين 1850-1854.

Tahar Osseddik: Bou - Beghla :
ENAL.Alger.

المراجع:

- 1 - د. إحسان حقي : الجزائر العربية . منشورات المكتب التجارية - بيروت ط1-1961.
- 2 - د. عبد اللطيف بن آشنهوا : تكون التخلف في الجزائر (1830-1962) ش.و.ن.ت. الجزائر. 1979.
- 3 - Djilali Sari :L'insurrection de 1881-1882. SNED.Alger.1981.
- 4- Annie Rey Goldzeiguer :Le ROYAUME ARABE. La politique Algérienne de Napoléon 3(1861-1870) SNED. Alger. 1977 .
- 5-Tahar Osseddik: Bou - Beghla : ENAL.Alger.